وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

وتأذن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع ، حتى الذي سنعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثمّ تهجياها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات ، ونقرأ في القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها .. أي سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقي » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبني إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين في أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

فى نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لايسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولاً، ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس يعلمون عنه أنه تابع لنبى ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة فى الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إنّ الحق ـ سبحانه ـ يسمى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شىء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهى وسائل العلم التى تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها فى أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ـ كما قلنا سابقاً ـ ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة ، فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هي الآلة التي تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت فى القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سنرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وتأذّن أي أعلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بني إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أي أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ، لأن البشر قد يُعْلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكي يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله - سبحانه - فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشيء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ، منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوي يحتمي به ، فينزل الله في هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أي جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثب في الدروع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أَعْلَمَ بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أَعْلَم به على وفق ما أعلم ، لأنه لايوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلى بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

أى أنه - سبحانه - أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟!

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، وبعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر - إذن - جاء ليعض الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير.ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها في البهائم ونسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تُربط وليست سائمة فهي التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أي طلب ، وبهيمة سائمة أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أي العذاب السيء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هي للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »(١) .

إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

---

(١) رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذى يتكلم ، وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظَّلَمة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه ـ سبحانه ـ يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجىء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لايبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضا منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ﴾ .

ومعنى « قطعنا هم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، ـ كما قلنا ـ فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فى

فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

فبعد أن مَنَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم فى الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط فى دائرتهم التى يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا فى مكان فلابد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل فى شرح قوله الحق :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن فى الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لم يحدد لهم مكاناً يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتى الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بناية للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذى دخل منهم فى الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون فى القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط . ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

كلمة « لعلهم يرجعون » هى التى جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أى اختبرنا ؛ لأن لله فى الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه ـ سبحانه ـ عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغرنا الأسباب فى الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذى وهبها :

﴿ كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا
إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربى أكرمن » . ومَن يقول : « ربى أهانن » والحق يوضح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجيء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قَدَر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون فى مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبنى ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائى عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بنى إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ
عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

والخَلَف أو الخَلْف أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أى كن خليفة لى ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفٌ » بسكون اللام ، فاعلم أنه فى الفساد ، وإن سمعتها « خَلَفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلَف لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكى موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش فى رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم أى جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضيق وقُدِر عليه رزقه رجلاً طيبا عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : « وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب » أى أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً فى بغداد ، يعيش فى نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه . وطرأ طارئ على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذى يرتضيه ، فقال : دارى بمائة دينار .

لكن جوارى لأبي دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخَلْف أخذوه ميراثاً ، والشيء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأداه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا في الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبُلِّغ إليهم وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألا يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب - التوراة - من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشيء الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان - حتى المؤمن - قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذْن بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إنّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجْرِم من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرِم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتي الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون في أحلامهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يَغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر . ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : اقْبَلْ أن تكون عاصياً ولا تدخل نفسك في الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفي صعبة ولا أقدر على نفسي فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ .

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون في غيهم ويرتكبون المعاصي تلو المعاصي دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرر العمل ، فيقال : « فلان درس الفقه » أي تعلمه تعلما متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و « الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة .

إذا التقى صائم ـ مثلا ـ بفقيه وسأله عن فتوى في أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة في الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئا في الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة في المعنويات هي مقابل الآلية في الماديات التي تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ أي تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا مافيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هي « درس القمح » ، ويعلم من تربى في الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن مافعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق في ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتي لنا بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

إنّ الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشىء هو ماسكه ، وتقول : « مسَكَ » وتقول : « مسَّكَ » ، و « أمسك » ، وتقول « استمسك » ، و« تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسِّكون » مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطّع ، ولكن قطّع أبلغ .

و(مسّك) يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و(استمسك) أى طلب ، و(تماسك) أى أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلىّ ، فاترك الباقى عنك فالمعونة منىّ أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لايلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسك ، فمن وجه نيته في أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليّ بشبر ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة[1] » .

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونة الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته في نفسك يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف في يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر في طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الانسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفي يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألا يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التي ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهي المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذي تلتقي به في الإيمان ؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي أي مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهي المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا

---

(١) من صحيح البخاري في كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم في صحيحه بثلاث طرق عن أبي هريرة ، كما أخرجه الترمذي وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله فى هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحى .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ؛ فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام - كما تعلم - خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفى أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شىء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهى لا تسقط أبداً ؛ لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهى لا تسقط أبدا .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان . ولذلك تسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شىء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب لبحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .